

إرهاصات النّظرية ما بعد الكولونيالية وتقويض الخطاب الاستعماري في كتابات مالك بن نبي .

The Initiations of Post-Colonial Theory and The Undermining The Colonial Discourse in Malek bennabi's writings

عبد الغني لبيلات

جامعة محمّد البشير الإبراهيمي – برج بوعريّج / الجزائر

email:abdelghani.lebibat@univ-bba.dz

تاريخ القبول: 16 - 11 - 2022

تاريخ الإرسال: 10- 09 - 2022

ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى محاولة استقصاء البدايات الأولى والإرهاصات الفعلية لمبادئ النظرية ما بعد الكولونيالية، وكذا المفاهيم المركزية التي أسهمت في تقويض الخطاب الكولونيالي في كتابات المفكر الجزائري مالك بن نبي، خاصة كتابيه: "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" و "شروط النهضة" ذلك أنّ مالك بن نبي يعدّ بمنجزاته الفكرية ومشروعه الحضاري من المؤسسين الأوائل لنظرية ما بعد الاستعمار التي اكتملت واستوت على عودها مع المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق، حيث أنّ ابن نبي حلّل الظاهرة الاستعمارية من الدّاخل من خلال مساءلة الذات والآخر وتعمّق في كشف ملابسات المعامل الاستعماري من جهة، ومعامل القابلية للاستعمار من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الكولونيالية؛ معامل القابلية للاستعمار؛ مالك بن نبي؛ الدّات والآخر.

Abstract:

This study seeks to investigate the first beginnings and the actual initiation of the principles of post-colonial theory, as well as the central concepts that contributed to undermining the colonial discourse in the writings of the Algerian thinker Malek Bennabi, especially his two books: "The Intellectual Conflict in Colonial Countries" and "The Conditions of the Renaissance". Therefore, Malek Bennabi is considered for his intellectual achievements and civilized project as one of the first founders of the post-colonial theory that was completed and settled with the Palestinian thinker Edward Said in his book "Orientalism". Thus, Bennabi analyzed the colonial phenomenon from the inside through questioning "the Self" and "the Other" and deepened in revealing the circumstances of the coefficient of colonialism besides the coefficient of colonisability.

Keywords: post-colonialism; coefficient of colonisability; Malek Bennabi; the self and the other.

مقدمة:

باتت النّظرية ما بعد الكولونيالية من المجالات المعرفيّة الخصبة التي واكبت وتواكب الصّراع الفكري المحتدم الذي يثار كلّما ذكر الاستعمار، فهي نظرية جاءت لتقوم بمساءلة الخطاب الكولونيالي الذي أسّس لمقولات مركزيّة في السّرديّات الغربيّة الكبرى، حتّى باتت مقولاته من المسلّمات التي لا يمكن التشكيك فيها أو محاورتها أو مناقشة جزئياتها، بحكم عقدة التفوّق التي أصيب بها المجتمع الغربي، فجاءت هذه النّظرية إذن لتكسر هذا الحاجز وتردّ على الخطاب المركزي الغربي الكولونيالي بخطاب آخر مضاد هو الخطاب ما بعد الكولونيالي، ولتقوم بتفكيك الاستعمار وتقويض مقولاته المركزيّة .

كان لهذه النّظرية مسار تطوّر كبير وشهدت جدلا في الرؤيا والمفهوم، إلّا أنّها واكبت الحركات التحرريّة وبرزت بقوة في كتابات العديد من الأعلام في أراضي الشّعوب المستعمرة والمستوطنات الاستعمارية في قارتي آسيا وإفريقيا وكان ذلك في الخمسينات من القرن العشرين، إلّا أنّها تطوّرت بمرور الوقت واتسعت قضاياها، وغالبا ما يشار إلى أنّ هذه النّظرية قد اكتملت مفاهيميّاً من خلال كتاب إدوارد سعيد الاستشراق الصّادر سنة 1978، إلّا أنّ هذه النظرية قد كان لها في الحقيقة منظّرون استشفروا قضاياها ومحاورها، وقدموا إرهابات لها، ومن هؤلاء مالك بن نبي الذي كان شاهدا على الحقبة الفرنسيّة الاستعماريّة في الجزائر، فقام بمساءلة الاستعمار من خلال ثنائية الدّات والآخر، ومن خلال تفكيكه للظاهرة الاستعمارية ومحاولة تقويض مقولاتها، وهذا ما دفعنا إلى اختياره كموضوع للبحث لنحاول أن نستكشف الإرهابات الأولى للنّظرية ما بعد الكولونياليّة في أعماله، خاصّة كتابيه: "شروط النّهضة" و"الصّراع الفكري".

وقد جاءت هذه الدّراسة تطبيقيّة في مجملها، تحاول اكتشافات البدايات الأولى لهذه النّظرية في كتابات مالك بن نبي، وكان هذا في عنصرين، أولهما: تمظهرات ما بعد الاستعمارية عند مالك بن نبي، وقفنا فيه عند المعامل الاستعماري ومعامل القابليّة للاستعمار، وثانيهما: آليات تقويض الخطاب الكولونيالي ووقفنا فيه كذلك عند قضيتين هما: صراع الأفكار في البلاد المستعمرة، وموقع المثقف من الصّراع الفكري.

اعتمدنا في كلّ ذلك منهجا تحليليّا استقرائيّا حاولنا من خلاله استجلاء مقولات النّظرية ما بعد الكولونيالية في فكر وكتابات مالك بن نبي للتأكيد على أنّ إبداعاته في مشروعه الحضاري قد احتوت الإرهاصات الأولى لهذه النّظرية.

استعنا في إنجاز هذه الدّراسة بجملة من المراجع يأتي في مقدمتها كتاب الثّلاثي: بيل أشكروفت، جاريث جريفيث، هيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسة، إضافة إلى رسالة ماجستير لنادية بوحاريش بعنوان: النّظرية ما بعد الكولونيالية والتّلقّي العربي .

وجاءت إشكاليّة البحث كالآتي: كيف تجلّت الإرهاصات الأولى للنّظرية ما بعد الكولونيالية في كتابات مالك بن نبي ؟ وكيف تمكّن هذا المفكر من تفكيك الاستعمار ومساءلة مقولاته المركزيّة ؟

تمهيد:

برزت النّظرية ما بعد الكولونيالية إلى الوجود منذ خمسينات القرن الماضي، وتعدّدت تعريفاتها بتعدّد المرجعيّات التي ينطلق منها كلّ باحث، وتعني فيما تعنيه: " دراسة مستعمرات أوروبا السّابقة منذ استقلالها: أي كيف استجابت لإرث الكولونياليّة الثّقافي، أو تكيفت معه، أو قاومته أو تغلّبت عليه من خلال الاستقلال، وهنا تشير الصّفة "ما بعد الكولونياليّة" إلى ثقافات ما بعد نهاية الكولونياليّة، والفترة التّاريخيّة التي تغطّيها هي تقريباً النّصف الثّاني من القرن العشرين ...¹ أمّا تردّد هذا كمصطلح على صعيد الدراسات الأدبيّة والنّقدية فيرجع إلى نهايات العقد السّابع من القرن العشرين، وبالتحديد سنة 1978، مع صدور كتاب "الاستشراق" للمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد، الذي يعدّ مرجعا تأسيسيّاً اكتملت فيه تصوّرات النّظرية ما بعد الكولونيالية، وبالتالي يحتلّ سعيد وكتابه موقعا متميّزا على صعيد الدراسات ما بعد الكولونيالية وتنبع أهميّته " من مدى قوّة أفكاره التحزّرية الداعية إلى ضرورة مقاومة الاستعمار والكولونيالية ومكائدهما، ولهذا كان من الأوائل السّباقين إلى الدّفاع عن قضيّة وطنه وشعبه، ألا وهي "القضيّة الفلسطينيّة" ومن الدّاعين إلى حلّ الصّراع الفلسطيني الإسرائيلي مبني على حلّ الدّولة

¹ روبنسون دوجلاس، (2005)، التّرجمة والإمبراطوريّة نظريّات التّرجمة ما بعد الكولونياليّة، تر: ثائر

ديب، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص28.

الواحدة، ولهذا فهناك: «اعتراف مؤكّد بمساهمات هذا المفكر العربي المتعدّدة على أكثر من صعيد، صعيد النّظرية في علوم الإنسان وصعيد التحليل المعرفي المقاوم لظاهرة الاستشراق، وصعيد الدراسات المقارنة، وصعيد موقف المثقّف المسؤول، هذه وغيرها مستويات حيوية مكّنت إدوارد سعيد لأن يواجه الكولونياليّة وما بعدها بذات الضّراوة، ودون أن تتنازعه هوادة أو شكوك حتّى مع فكرته حول الدّولة العلمانيّة»...¹

ولكنّ إدوارد سعيد لم ينطلق في دراساته من فراغ، ولم يكن أوّل من تنبّه إلى مكائد الاستعمار ومشاريعه الإمبريالية وخطورته، وإنّما سبقه في ذلك أعلام ورواد تنوّعت جهودهم ومشاربهم الفكرية وانتماءاتهم وحتّى أوطانهم التي ينتمون إليها، وإن كانوا جميعا ينتمون إلى بلدان العالم الثّالث، ومن أبرز من تصدّى إلى الاستعمار وحاول تقويض مقولاته مالك بن نبي الذي عايش التّجربة الاستعماريّة بالجزائر وعاش شطرا من حياته بفرنسا بحيث "أنّ وعيه بالقضايا والمشكلات التي شغلت تفكيره قد أصبح يأخذ منحى جديدا إذ ساعدته مناقشاته مع زملائه المسيحيين على اكتساب آليات جديدة للتحليل والتّفكير".² ولذلك تقف عنده هذه الدّراسة بشيء من التحليل علّها تبين البوادر والإرهاصات الأولى لتأسيس خطاب ما بعد كولونيالي ونظرية ما بعد كولونيالية من خلال كتاباته ومشروعه المشهور في بناء الحضارة.

1. تمظهرات ما بعد الكولونيالية عند مالك بن نبي:

إنّ المركزيّة الغربيّة بتبنيها لخطاب كولونيالي قائم على -" الثّبات في البناء الإيديولوجي للأخريّة [...] وهو نمط متناقض من أنماط التّمثيل: فهو يتضمّن معنى الصّلاية والنّظام الذي لا يتغيّر كما يتضمّن أيضا معنى اختلال النّظام والتفسّخ والتكرار الشّيطاني ...".³

¹ بوحاريش نادية، النّظرية ما بعد الكولونياليّة والتلقّي العربي، رسالة ماجستير، كليّة الآداب واللّغات، جامعة محمّد الصديق بن يحيى، جيجل، 2015-2016، ص 59-60، نقلا عن: إبراهيم عبد الله غلوم، المثقّف داخل المكان/ داخل القضية، ندوة فكرية بعنوان (إدوارد سعيد داخل المكان) ... ص 1.

² بريون فوزيّة، (1431هـ- 2010م)، مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، ط1، دار الفكر، دمشق، ص 113.

³ هومي. ك. بابا، (2004)، موقع الثقافة، تر: نائر الدّيب، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص 145.

وتحاملها على الشعوب الأصلانية التابعة ومحاولة إقصائها وإخراجها من التاريخ وتكميم صوته، وإمعانها في تهميشها، ذلك أن " مفردات الثقافة الإمبريالية العريقة في القرن التاسع عشر لتحفل بالفاظ وتصوّرات من مثل "دوني"، "أعراق تابعة محكومة"، "شعوب خاضعة"، "تبعيّة"، "توسّع"، "سلطة"...¹ هذه الأخيرة دفعت بالضرورة إلى بروز خطاب ما بعد كولونيالي للواجهة، لأنّ قانون الطبيعة يفرض أنّ كل فعل له ردّ فعل مساوٍ في القوّة ومعاكس في الاتجاه، وبالتالي كان من الضروري أن تبرز نظرية ما بعد كولونيالية " لتعري وتفضح استراتيجيات الاستعمار الممارسة ضدّ المستعمرين، وإعادة قراءة الخطاب الاستعماري من وجهة نظر المستعمرين، ومساءلة ثنائيات من قبيل: مستعمر/ مستعمر، مركزي/هامشي، فوق/ تحتي، سيّد/ عبد، أنا/ آخر، متحضّر/ متخلّف. كما جاءت أيضا لترسيخ أصوات أخرى قمعت من طرف الاستعماريين، ولترسيخ مركزيات جديدة على حساب مركزيّة الاستعمار. والقول بالتعددية الثقافية والاثنية والعرقية للشعوب...² ".

وقد كانت هذه النظرية حصيلة جهود العديد من الأعلام والمفكرين البارزين من العالم الثالث، الذين عرفوا الاستعمار وعاشوا فترته وعايَنوه، فاستطاعوا أن يدرسوه كظاهرة ويحلّلوها من الدّاخل، وبالتالي تمكّنوا من الانطلاق من " صوت الفئات الأقلّ حظًا وحضورا في المشاهد السياسيّة بدل اعتماد السّردية التاريخيّة النخبويّة...³ وهو ما فعله المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي كان شاهدا على الفترة الكولونيالية الفرنسيّة في الجزائر، فاستطاع أن يحلّل الظاهرة الاستعمارية ويفكّكها من الدّاخل وأن يكشف ملابساتها في مؤلفاته خاصّة كتابيه "الصّراع الفكري في البلاد المستعمرة" وكتاب: "شروط التّهمّة ".

¹ إدوارد سعيد، (2014)، الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبوديب، ط4، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص80.

² شعبان عبد العزيز، (2020)، تمثّلات الاتجاه ما بعد الاستعماري في كتابات مالك بن نبي وفرانز فانون، مجلّة إشكالات في اللّغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست- الجزائر، مجلد 9، العدد 5، 2020، ص1052.

³ سلام يونس، (2020)، هل يمكن للتابع أن يُسمع؟: النّظرية السياسيّة، التّرجمة، التّمثيل وغياباتي شكرافورتي سبيفاك، مجلّة اللّغة العربيّة، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، المجلد 22، العدد 50، 2020، ص547.

ونقف هنا عند أهمّ ملامح وتجليّات النّظرية ما بعد الكولونيالية في مؤلّفاته خاصّة كتاب "شروط التّهضة" الذي أبدع فيه مصطلحين مهمّين فكّك من خلالهما الظاهرة الاستعمارية، حيث سمّاهما: "المعامل الاستعماري" و"معامل القابليّة للاستعمار":

1.1. المعامل الاستعماري:

ويأتي هذا المعامل كنتيجة للصّراعات والجدل القائم بين الأنا – المستعمرة- والآخر – المستعمر- فهما القطبان الأساسيان في الخطاب الكولونيالي وما بعد الكولونيالي، ولذلك "طرحت نظرية ما بعد الاستعمار مجموعة من الإشكاليّات الجوهرية التي تتعرّض بالدراسة لعلاقة الأنا بالآخر أو علاقة الشّرق بالغرب، أو علاقة الهامش بالمركز، أو علاقة المستعمر بالشّعوب التي استعمرها(مستعمراته)..."¹

وقد تعرّض مالك بن نبي لهذه العلاقة الجدليّة وقام بمساءلة الأنا والآخر في خطابه التّفكيكي للاستعمار من خلال مفهوم "المعامل الاستعماري" الذي يعد "معاملا خارجيا يفرضه المستعمر من الخارج بأن يضع العراقيل والمعوقات التي تمنع ابن المستعمرات من التّهوض والتقدّم وبناء حياته، بما أنّ الفرد حسب بن نبي من أهمّ مقوّمات الحضارة إلى جانب الثّراب والزّمن، وبالتالي سيسعى المستعمر إلى إعاقته، وتحريف معادلته والقضاء على فعاليته الاجتماعية، وكلّ هذه الأمور مجتمعة تشكّل نموذجا معيّنا، نموذجا مهزوزا من داخله، ومفرخة للعقد التي تعمل على ترسيخ تفوّق المستعمر ودونية المستعمر، وتغرس في الأخير عقدة التّبعية، حتّى أنّه لا يرى الخلاص إلّا في اتباع المستعمر والتشبّه به في كلّ شيء".²

فالمعامل الاستعماري إذا يتجسّد في كلّ السّياسات والأساليب والطرق التي يستخدمها الاستعمار لتحطيم فاعلية المستعمر ومؤشرات كفاءته تمهيدا لمحوه وإقصائه من الوجود ومن ثمّ السّيطرة عليه بسهولة، يتحدّث ابن نبي عن هذا المعامل ويعطينا مثالا حيّا عنه إذ يقول: "تبدأ قضيّة الاستعمار تهمنّا، لأنّه يفرض على حياة الفرد عاملا سلبيا نسّميه بالمصطلح الرّياضي (المعامل الاستعماري Coefficient)، ولذلك المعامل تاريخه في سياسة

¹ بوحارّيش نادية، النّظرية ما بعد الكولونيالية والتلقّي العربي، ص22.

² شعبان عبد العزيز، تمثّلات الاتجاه ما بعد الاستعماري في كتابات مالك بن نبي وفراز فانون،

الاستعمار، فقد كان القائد الفرنسي (بوجو) – وهو في عهد الاحتلال الصّورة المقابلة لصورة الأمير عبد القادر – أول فرنسي أدرك حقيقة الشّعب الجزائري، وما ينطوي عليه من عبقرية فذة، إدراكا وضع بمقتضاه الطريقة المناسبة لاستقرار الاستعمار. وقد وضعها أساسا لتخطيط سياسته الفرنسيّة، التي كانت في نظره تحتاج إلى معمرين يتكافؤون مع قيمة الأهالي الطّبيعيّة..."¹

فانطلاقاً ممّا سبق نكتشف مفهوم هذا المعامل وكيفية اشتغاله من طرف المستعمر، فهو يسعى بكلّ الطّرق إلى محو عبقرية المستعمر وتجريده من كلّ كفاءة أو مؤهلات، مثلما سعى الاستعمار الفرنسي إلى تحطيم عبقرية وجوه الفرد الجزائري مبتدعاً ألوان وأفانين شتى يمارسها على هذا الفرد في مختلف أطوار حياته ومراحل العمرية حتّى يجعل منه كائناً مشوّهاً فاقداً للأهليّة، وهنا مكنم الخطورة التي يشير إليها ابن نبي بقوله: "ولقد رأينا هذا المعامل يؤثّر في حياة الفرد في جميع أطوارها، يؤثّر فيه وهو طفل، إذ لا يمدّه المجتمع بما يقوّي جسده وينمّي فكره، أو يهيّء له مدرسة أو توجيه، هذا إذا كان له أب يحنو عليه، أمّا إذا فقد من نشأته الأب فسيكون الأمر أدهى وأمر، ولسوف يؤول صاغراً إلى ماسح أحمية، أو سائل يتخلّى عن عزّة وكرامة بإراقة ماء وجهه..."²

ونلاحظ من خلال قول ابن نبي أنّ الاستعمار يبدأ تجسيد مخططاته التّخريبية في بنية الكائن البشري – المستعمر- انطلاقاً من الطفل الصغير، باعتبار أنّ طفل اليوم هو رجل الغد، فيعمل على تعطيل كلّ مؤشرات النّجاح فيه، وقتل أي بذرة للتفوّق قد يميّزها ويتمّ وأد مواهبه في مهدها، وهذه واحدة من استراتيجيات الاستعمار التي يعتمدها في تعطيل فاعلية العنصر البشري تمهيداً للتحكّم فيه، والسّيطرة عليه.

ومن الاستراتيجيات الأخرى التي يشتغل عليها المخطّط الكولونيالي كذلك رجاله التي أشار إليها مالك ابن نبي مراراً، نشره الفساد على أوسع نطاق في مستعمراته، فنجدّه يشجّع الآفات الاجتماعيّة كشرب الخمر في البلدان الإسلاميّة التي بسط نفوذه عليها، وتوفيرها على أوسع نطاق، بزرعها وغرسها بدل المحاصيل الأخرى، كذلك عبثه بتعاليم

¹ ابن نبي مالك، (1438هـ- 2017م)، شروط النّهضة، تر: عمر كامل مسقاوي و عبد الصّبور شاهين،

ط15، دار الفكر، دمشق، ص150.

² المصدر نفسه، ص151.

الدّين وتدخله في الخصوصيّات الدينيّة لشعوب العالم الثّالث، فنجدّه يحاول - وهو شيطان بتعبير مالك بن نبي - أن يدخل من أبواب الاختلاف في القضايا الدينيّة كي يزرع فتنا بين أبناء الأمة الواحدة، وقد يدخل مرّة أخرى من باب الاختلافات العرقية والاثنيّة، فيستغلّ الأقليّات الثقافيّة ويعطيها امتيازات على حساب الأغليّة من أبناء تلك المستعمرة، تطبيقا لسياسته المعروفة (فرّق تسد)، ثمّ يبقى في برجه العاجي يستمتع بتناحر هذه الأقليّات التي لا تتفطّن في الغالب لمشاريعه الخبيثة.

ومن سياساته كذلك أنّه يشجّع الخرافات ويعمل على إحيائها، فنجدّه في الجزائر مثلاً يقف في صفّ الفرق الصوفيّة الضّالة التي تنشر التخاريف وتبعث بعقول النّاس بقولها : "إنّ الاستعمار قضاء وقدر".

كما نجدّه كذلك يعمد إلى خلق طبقة في المجتمع تدين له بالولاء والعمالة، وهي ما يسميها "كوامي نكروما" بـ "طبقة الوكلاء" وهم : أتباع وجماعة يوهّمهم الاستعمار بكونهم شركاء له وأنداد، ليقضي مآربه بهم، وفي الغالب نجد أنّ أبناء هذه الطبقة يتلقون تعليماً في المدارس الكولونيالية واهتماماً خاصاً لكونهم يخدمون المشروع الإمبريالي.

يشير مالك بن نبي كذلك إلى مسألة أخرى في غاية الخطورة ينهجها الاستعمار وهو محاولته وضع الشّعوب المستعمرة خارج التّاريخ، فالاستعمار إلى جانب سياساته الوحشيّة التي ينتهجها تجاه الشّعوب المغلوبة على أمرها، يشتغل في شقّ مواز على الجانب التّاريخي، فيقوم بالتلاعب بمحطّات تاريخيّة حاسمة، ويتدخل في كرونولوجيته بالحذف والزيادة والإنقاص، حتّى ينسجه على مقياس مشاريعه وآفاقه، ولا عجب أن نجدّه يعمد إلى التزوير فيمحو محطّة حاسمة وجوهريّة في التّاريخ الإنساني، إنّها الحضارة الإسلاميّة، فنجدّه في سردياته الكبرى يعمد عن قصد إلى تخطّيها أو عدها مرحلة فراغ، في حين أنّ التّاريخ الإنساني لا يؤمن بالفراغ، وإلى ذلك يشير مالك بن نبي بقوله: " زور الكتّاب الغربيّون التّاريخ، حتّى ظهر في عيون من أخذ عنهم أنّ التّاريخ البشري ليس تلك السلسلة التي تتصل فيها جهود الأجيال، وإنّما في نظرهم: تلك المسافة المختزلة تبتدئ من (الأكروبول) في أثينا وتنتهي عند قصر "شايو" بباريس، أو أكثر من ذلك بقليل، ولو أنّهم دقّقوا النّظر

لوجدوا هوة كبيرة تفصل حضارة أرسطو وحضارة ديكارت، وأنّ تلك الهوة من القرون هي الحضارة الإسلاميّة¹.

وهذا التّزوير والعبث بالحقائق التاريخيّة هو الذي شاع في أدبيّات الاستعمار وكتابات مفكره، وهو كذلك من الأساسيّات التي انطلقت منها العمليات الإمبريالية الغربيّة في محاولة تجسيدها لمشروع الإمبراطورية الاستعماريّة.

وهكذا نلاحظ كيف تمكّن مالك بن نبي من مساءلة الذات والآخر من خلال تفكيكه للاستعمار بتأسيسه لمصطلح ومفهوم "المعامل الاستعماري"، ونفوذه إلى عمق أعماق الظاهرة الاستعماريّة وتبيينه لاستراتيجيات الاستعمار المختلفة التي يطبقها على الشعوب المستعمرة، حيث نجده يقوم بتقويض مقولاتها، خاصّة مسألة عبث الاستعمار بالتّاريخ وسياساته التّزييفيّة للحقيقة التّاريخيّة.

2.1. معامِل القابليّة للاستعمار:

إذا كان المعامل الاستعماري السّابق الذي وقفنا عنده، ينطلق من عمق الظاهرة الاستعماريّة، ومن جملة السّياسات المختلفة التي يعتمد عليها المستعمر، فهو بالنسبة للذّات المستعمرة عامل خارج عن نطاقها، وإن كانت هدفا له يسعى من خلاله المستعمر إلى تجريد هذه الذّات من كلّ خصوصيّة وفعاليّة اجتماعيّة. وإلى هذا يشير ابن نبي بقوله: "هذا الاعتبار خارجيّ بكيفيّة ما، لأنّه يرينا كيف يؤثّر الاستعمار على الفرد من الخارج، ليخلق منه نموذج الكائن المغلوب على أمره، والذي يسميه المستعمر في لغته (الأهلي) ..."². فإنّ معامل "القابليّة للاستعمار" معاكس له في المنبع، إذ يصدر عن الذّات المستعمرة نفسها، فهو عامل "ينبعث من باطن الفرد الذي يقبل على نفسه تلك الصّبغة، والسّير في تلك الحدود الضيّقة التي رسمها الاستعمار، وحدّد له فيها حركاته وأفكاره وحياته. فنرى أوّلا هذا الرّجل يقبل اسم (الأهلي)، يوم استأهل لكلّ ما ترمي إليه المقاصد الاستعماريّة، من تقليل قيمته من كلّ ناحية، حتّى من ناحية اسمه ..."³.

¹ بن نبي مالك، شروط النّهضة، ص 153.

² المصدر نفسه، ص 156.

³ بن نبي مالك، المصدر السّابق، ص 156.

فقبول المستعمر صفة الأهلي - بكل ما تحمله من معاني التهميش والتحقير والازدراء- يعدّ من علامات الانتكاس، والرضا بالدونية المسلطة من قبل المستعمر، وهذا الرضا والقبول والانتكاس يعدّ أمراً خطيراً، لأنّه أولاً وقبل كلّ شيء يعدّ شيئاً منافياً لطبيعة النفس البشريّة التي ترفض الاستبداد والإقصاء وتسمو إلى الحرّيّة. وهذه الظاهرة الخطيرة ليست بدعا في التاريخ ولذلك " يرجع ابن نبي أول ظهور للقابليّة للاستعمار إلى قرون ما بعد الموحدين، وهي عبارة عن عوامل داخلية نفسية تدفع بالفرد إلى الشّعور بعقد الدونية والنقص والتبعية إزاء المستعمر، تخدّره وتشلّه من الداخل فيرضى العيش أبد الدهر في الذلّ والمهانة والرقّ والعبودية..."¹

فهذا العامل إذا داخلي منبعث من صميم النفس التي تصبح مستلبة لا ترى إلا ما يراه الأجنبي المستعمر، بل إنّها ترى فيه الكمال المطلق ولا تقيس نفسها إلاّ بالمقاييس التي وضعها هو. " إنّ أولى الهزائم التي تطال المستعمر في ساحة هذا العامل الباطني حسب ابن نبي هي قبوله تسمية الأهلي بكلّ ما تعنيه وبكلّ ما فيها من مرامي ومقاصد الاستعمار من تقليل وازدراء وتحقير لقيّمته..."²

فالقابليّة للاستعمار إذا هي حالة نفسية غير طبيعية، وانحراف في السلوك البشري، والفترة السليمة التي تأبى الذلّ والهوان إنّها ببساطة: "حالة التعفّن الداخلي، هي الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي، إنّها حالة تخلي الفرد عن كل ما هو جميل من القيم، ويبدّلها بأخرى لا تمّت له بصلة..."³

ويمكن أن نستنتج من كلام مالك بن نبي أنّ هذا المعامل يشغل وفق آليات مختلفة، وفي مجالات متعدّدة، فهذه الحالة النفسية المتردّية من الاستعداد النفسي بقبول واقع الاستعمار، تمتدّ إلى أكثر من مجال في الحياة، إنّها بالضبط كالفيروس الذي يصيب عضوا من أعضاء الجسم، ثمّ سرعان ما ينتشر في جميع أرجائه ليفتك به في النهاية.

¹ شعبان عبد العزيز، تمثّلات الاتجاه ما بعد الاستعماري في كتابات مالك بن نبي وفرانز فانون، ص1058.

² المرجع نفسه، ص1059.

³ المرجع نفسه، ص1060.

يعمل هذا المعامل في الجانب الاقتصادي على خلق طبقة بطالة على نطاق واسع، طبقة غير منتجة، وبالتالي القضاء على فاعليتها الاقتصادية، كما سبق وأن اشتغل المعامل السابق على قتل فاعليتها الاجتماعية، يقول ابن نبي: "إنّ المستعمر يريد منّا بطالة يحصل من ورائها يدا عاملة بثمن بخس فيجد منّا متقاعدین، بينما الأعمال جدیة تترقّب الهمة والنشاط"¹.

أما في الجانب التعليمي فنجد الذات المستعمرة تميل إلى الرضا بواقع الجهل والأمية المسلط عليها، ولا تبذل جهدا في تعلّم أو تحصيل، وبالتالي توقّر عن جهل منها كلّ أسباب الغلبة للاستعمار كي يستحوذ عليها ويخضعها، وإلى ذلك يشير مالك بن نبي بقوله: "وهو يريد منّا جهلة يستغلّهم، فيجدنا نقاوم ذلك الجهد البسيط المبذول عندنا ضدّ الأمية، وهو جهد (جمعية العلماء)..."².

ومعلوم في هذا الجانب كيف تنهت جمعية العلماء ورجالها إلى سياسة الغطرس والتجهيل التي مارسها الاستعمار، ورضا بعض الفرق الصوفية المنحرفة بذلك، ومساهماتهم فيه بحظ وافر، ممّا دفعهم إلى بناء المدارس وتعليم العديد من فئات المجتمع، مع قلّة الإمكانيات .

أما في الجانب السياسي فإن كان الاستعمار قد سمح بإنشاء الأحزاب السياسية، فإنّ ذلك كان لغاية يريدها، وهي سياسته المعهودة (فرّق تسد) بحيث تكثّر الأحزاب، وتباين الرؤى، وتتناقض الأهداف، وكلّهُ يصبّ في مصلحة الاستعمار، وتنزوي الذات المستعمرة على نفسها وترتدّ خائبة وتسقط قناعاتها بجدوى العمل السياسي وتصاب بالإحباط ويشغل معامل القابلية هنا بأن ترى نفسها أقلّ كفاءة من المستعمر الذي يحسن توظيف السياسة وتنظيم نفسه في أحزاب، وما أزمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية في الجزائر سوى خير دليل على هذا الكلام.

أما إذا اتجهنا إلى الجانب الأخلاقي والفني، فإننا نجد عند الذات المستعمرة قابلية بواقع الذلّ والانحطاط المفروض عليها، وتقع تحت طائلة مرامي المستعمر الذي يبذل قصارى جهده في إفساد الذوق العام ونشر الرذائل ومحاربة الفضائل. إنّ الاستعمار

¹ بن نبي مالك، شروط النهضة، ص 157.

² المصدر نفسه، ص 157.

يريد منا انحطاطا في الأخلاق كي تشيع الرذيلة بيننا، تلك الرذيلة التي تكون نفسية رجل (القلة)، فيجدنا أسرع إلى محاربة الفضيلة، التي يحاول نشرها العلماء في بلادنا.... وهو يريد منا أن نكون أفرادا تغمرهم الأوساخ، ويظهر في تصرفاتهم الذوق القبيح، حتى نكون قطيعا محتقرا، يسلم نفسه للأوساخ والمخازي، فيجدنا ناشطين لتلبية دعوته...¹

هكذا إذن يشغل هذا المعامل الداخلي في داخل الفرد المستعمر، على نواح متعددة، فيصبح مطوقا بأطواق الاستعباد والاستبداد الاستعماري الذي لا يستطيع منه فكاكا. " وبذلك تكون العلة مزدوجة، فكما شعرنا بداء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج، فإننا نرى في الوقت نفسه معاملا باطنيا يستجيب للمعامل الخارجي ويحطّ من كرامتنا بأيدينا".²

والحل لهذه المعضلة وهذه العلة يراه مالك بن نبي في ضرورة تحديد وتبصر مواطن الضعف التي يدخل منها الاستعمار وينفذ إلى جواهرنا، كي يستغلنا ويبدّد قدراتنا، معناه أولا وقبل كلّ شيء أن نكون على وعي تامّ بذواتنا وحقيقة كفاءاتنا. " إن القضية عندنا منوطة أولا بتخلّصنا ممّا يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أولا نشعر، ومادام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشثيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين: «أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم»".³

وهكذا نلاحظ أنّ مالك بن نبي استطاع من خلال هذين المعاملين - المعامل الاستعماري، ومعامل القابلية للاستعمار - من تفكيك الظاهرة الاستعمارية وتحليلها من الداخل، كما عمد إلى مساءلة ثنائية الأنا والآخر في ظلّها، وحاول تقويض المقولات الاستعمارية التي يحفل بها الخطاب الكولونيالي، فشكّل كل هذا مهادا لخطاب ما بعد الكولونيالية وإرهاصا لنظريته.

¹ بن نبي مالك، شروط النهضة، ص 157.

² المصدر نفسه، ص 157.

³ المصدر نفسه، ص 158.

2. آليات تقويض الخطاب الاستعماري:

عمد مالك بن نبي في كثير من كتاباته إلى تحليل الظاهرة الاستعمارية وتفكيك مقولاتها المركزية خاصة في كتابه : "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"، فقد كان متشبعا بثقافة وطنية أصيلة، وبخبرة كذلك بالاستعمار وأبنائه كونه عاش فترة من حياته بفرنسا . وعموما " لعبت تأكيدات الثقافة الوطنية وتقاليدها ما قبل الكولونيالية دورا مهما في خلق خطاب مناهض للكولونيالية، وفي الجدل من أجل مشروع نشط لتفكيك الاستعمار، تؤكد نظريات الطبيعة المهجنة لثقافة ما بعد الكولونيالية نموذجا مختلفا للمقاومة. واضحة هذا في الممارسات التقويضية الخطابية المضادة المتضمنة في التناقض الكولونيالي نفسه، وهذا تهدم الأساس بعينه، الذي عليه يقيم الخطاب الكولونيالي والإمبريالي دعواه بالتفوق ..."¹

فابن نبي استطاع من واقع خبرته بعلم الاجتماع أن ينفذ إلى أعماق الذات المستعمرة ويكشف لنا عن إيديولوجيتها الاستعمارية، وعن فلسفة مشاريعها الإمبريالية، وكيفية نظرتها إلى الشعوب المستعمرة، وجملة مخططاتها التي تضعها لإخضاع أبناء المستعمرات لنفوذها وسطوتها.

إن مالك بن نبي يمارس في كتابه هذا عملية (تفكيك الاستعمار Decolonization) وهي : " عملية الكشف عن النفوذ الكولونيالي بكافة أنماطه وفصل أجزاء بعضه عن بعض، وتشمل هذه العملية تفكيك العناصر المستترة لتلك القوى المؤسسية والثقافية التي منحت ديمومة للنفوذ الكولونيالي وظلت كذلك حتى بعد تحقيق الاستقلال السياسي ..."²

وقد رأينا في العنصر السابق كيف مارس ابن نبي هذه العملية من خلال وقوفه عند مفهومي : المعامل الاستعماري كمعامل خارجي، ومعامل القابلية للاستعمار كمعامل داخلي

¹ أشكروفت بيل، جريفيث جارث، تيفين هيلين، (2010)، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، تر: أحمد الروبي، أيمن حلبي، عاطف عثمان، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ص203.

² أشكروفت بيل، جريفيث جارث، تيفين هيلين، المرجع السابق، ص129.

بالنسبة للشعوب المستعمرة، وتبيينه لآليات اشتغال هذين المعاملين، ومجالات عملهما، ونقف هنا عند آليات أخرى برزت في كتابه: "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة".

1.2. صراع الأفكار في البلدان المستعمرة:

ينطلق مالك بن نبي في تبين ملامح الصراع الفكري في الجزائر وتبعه، انطلاقا من من تجربته الشخصية ومعاشته للتجربة الاستعمارية في الجزائر، فقد كان شاهدا على هذه المرحلة الحساسة والحاسمة من تاريخ الجزائر.

1.1.2 بين الفكرة المتجسدة والفكرة المجردة:

يبدع ابن نبي في هذا السياق مصطلحي (الفكرة المتجسدة) و(الفكرة المجردة) للحديث عن بؤادر الصراع الفكري في الجزائر كنموذج من البلدان المستعمرة، ويعني بالفكرة المتجسدة ظهور فكرة اصلاحيّة تبزغ في ظلّ ظلام مدلهمّ وجهل مطبق على شعوب وذوات أبناء المستعمرات، هدفها تخليص الشعب من رقدته وسباته العميق، لكنّ الاستعمار سرعان ما يسارع إلى وأدها في مهدها والقضاء عليها بأيّ طريقة، حتّى يقتل روح المبادرة والتغيير، لأنّها رياح ستعصف بوجوده لا محالة، وفي هذه الحالة تصبح هذه الفكرة (فكرة مجرّدة)، فهي مستقرّة في أذهان الشعب، لكنّها غير قابلة للتحقق على أرض الواقع، يقدّم مالك بن نبي مثالا حيّا عن مفهوم هاتين الفكرتين رابطا إياهما بمفهوم (الشخصية) وهي حسب فهمنا المحرك والفاعل في إنجاز وتجسيد هاتين الفكرتين، فيقول: " ففي الجزائر مثلا نرى الستار يرتفع عن شعب لازال يخدّره النوم الذي أخنى عليه بضعة قرون: إنّه الشّخصيّة الأولى. ولكن في اللحظة نفسها تدخل شخصيّة ثانية نطلق عليها (فكرة متجسّدة)، لأنّها تتمثّل في شيخين وقورين: هما الشّيخ بن مهنّا والشّيخ عبد القادر المجاوي، يتقدّمان على مسرح التّاريخ الجزائري بوصفهما أوّل بطلين في الصّراع الذي بدأ حينئذ ضدّ المرابطين والخرافات .

ولمّا كان لظهورهما دويّ كبير في البلاد، جاءت شخصيّة ثالثة تدخل على أثرهما: هي الاستعمار. فالاستعمار يدخل المسرح حتّى يعيد إلى جوّه صمّتا يغار ويحرص على بقائه كي يطيب للنائمين نومهم .

ذلك هو المشهد الأول من الصراع الفكري في الجزائر، ولكن الاستعمار لا يلجأ في هذا الفصل الافتتاحي إلى غير وسائل القوة، إذ هو يدرك أنه يواجه (فكرة متجسدة)، يمكنه إقصاؤها على خشبة المسرح إذا ما أبعد الشّيوخ الذين يمثلونها، وكذلك فعل بالضبط. ولكن سرعان ما تبين له أنّ الفكرة التي أراد إقصاءها بقيت حيّة في ميدان المعركة، إذ بقيت في صورة جديدة بوصفها (فكرة مجردة) استقرت في ضمير الشعب...¹ فهذه أول ملامح الصراع الفكري الذي يلوح في الأفق مبشراً بحرب في الأفكار بين مستويين متباينين من الوعي، وبين مشروعين متناقضين في المرامي والأهداف.

2.1.2 الاستعمار وحرب الأفكار (أساليبه ووسائله):

تحتدم بين المستعمر والمستعمّر حرب تكون الأفكار قطب الرّحى فيها، وتوظّف فيها أدوات فكرية مختلفة، يسعى الطرف الأول إلى تجسيد مشروعه الإمبريالي بكلّ الطرق والأساليب مجنّداً من جهة طبقة من العملاء والوكلاء، وكذلك جملة من الحقول المعرفية التي يوظّفها في حرب الأفكار هذه، في حين يسعى الطرف الثّاني إلى انتظار بزوغ فكرة إصلاحية يلتفت حولها، ويدافع عنها، لأنّها تمثلّ له فتحاً مبيناً واستشرافاً لمستقبل مشرق، وإلى هذه الفكرة الإصلاحية يتنبّه الاستعمار، فيقوم أول ما يقوم بمحاولة استئصالها من جذورها وكبح جماحها بوسيلتين هما: القوة أو الإغراء وإلى هذا يشير بن نبي في قوله: "هنا يبتدئ الصراع الفكري على حقيقته، إذ أنّ الاستعمار سوف يجتهد في هذا الفصل الجديد، في امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة بأيّ طريقة ممكنة، حتّى لا تتعلّق بفكرة مجردة، ومن البديهي أنّه سيحاول أولاً تعبئتها لحساب فكرة متجسّدة تجسّداً تصبح معه أقرب إليه منالاً، لأنّه يمكنه مقاومتها إمّا بوسائل القوة أو بوسائل الإغراء".²

وفي حرب الأفكار هاته التي يشهّرها الاستعمار نجده يستخدم أدوات وأسلحة خاصّة، يوظّفها بمكرودهاء للقضاء على أيّ فكرة ذات صبغة إصلاحية تبزغ إلى الوجود، يحدّد ابن نبي ثلاثة أسلحة يستخدمها الاستعمار هي: لغة الدّين، جهل الجماهير، سلاح المال

¹ بن نبي مالك، (2017م)، الصراع الفكري - مشكلات الحضارة-، تر: كامل مسقاوي وعبد الصّبور شاهين، طبعة 2017، منشورات بن مرابط، ص 17-18.

² بن نبي مالك، المصدر السّابق، ص 18.

ونحاول فهم طريقة اشتغالها من قول ابن نبي: "في مستوى آخر تراه يفضل لغة الدين، لأنها تسدّ بصورة محكمة منافذ الوعي إزاء الفكرة، في هذا المستوى.

غير أننا في مستوى أدنى نراه يستغلّ جهل الجماهير، لينشئ حول الفكرة منطقة فراغ وصمت لعزلها عن المجتمع، وهكذا حتى يصل إلى أخطّ مستوى يستخدم سلاح المال، إذ يكون لنفسه بهذه الوسيلة صداقات، أو كما يعبرون بلغة الحرب اتفاقات في البلاد المستعمرة، تساعد على توجيه هجمات محكمة في الوقت المناسب على بعض القطاعات من الجهة الفكرية ..."¹

ولا يخفى في هذا السياق كيف يستغل الاستعمار لغة الدين لتجسيد خطته الجهنمية لما يزرع التفرقة والفتنة ويشتت الجماهير مستفيدا مثلما أشار بن نبي في المستوى الثاني من جهلها وأميّتها، ويستخدم ختاما المال الذي هو في الغالب حصيلة سلب ونهب من أبناء المستعمرات.

3.1.2 الاستعمار وزرعه لثقافة الاستهلاك:

في الشق الاقتصادي يعمل الاستعمار على تشجيع ثقافة الاستهلاك في نفوس المستعمرين ويزيئها لهم، ويدعم ذلك بخطاب تبريري يحاول من خلاله الإقناع بجدوى الثقافة الاستهلاكية، وهذا الأمر يستدعي بدوره وعيا من النخب في البلدان المستعمرة لتشرح هذه الظاهرة السلبية، ومن ثمّ تقويض مضامينها. ذلك أنّ "الاستهلاك والاستعمار هما: عماد الدين الجديد، وبالتالي فإنّ الشعار السائد هو «أنا أستعمر إذن أنا موجود» أو «أنا أستهلك إذن أنا موجود». وبالتالي فإنّه مثلما يتقن العالم الأول خطاب التبرير، يتعيّن على العالم الثالث أن يعي آليات ترجمة هذا الخطاب وتفكيكه ..."²

فمن المعلوم أنّ من وسائل الكولونيالية سيطرتها على وسائل الإنتاج ثمّ زرعها لثقافة الاستهلاك في العالم الثالث حتى تضمن هيمنتها وتكريس تبعيّة هذه الشعوب لها. وفي هذا السياق " يبيّن المسيحي الفرق بين الإمبريالية العسكرية التقليدية، والإمبريالية النفسية والثقافية، ويحدّر من العجز العسكري وارتباطه بالخطاب التبريري الذي يسبق الاستعمار

¹ المصدر نفسه، ص 19.

² كرمة سامي، فجر زائف: عالم ما بعد الكولونيالية ... الشجاع الجديد ! ، تقديم لكتاب: بيل أشكروفت، جاريث جريفيث، هيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، ص 14.

النَّفسي أو الفعلي: «المخرج الوحيد لها هو نشر التَّزعة الاستهلاكية في بقية أنحاء العالم».(المسيري 309). ومن ثمَّ فإنَّ العالم الثالث منجم مواد خام لصناعات العالم الأول أو سوق لمنتجاته، أمَّا شعوب العالم الثالث فهي عمالة رخيصة أو أفواه لا مجدية....¹

فالاستعمار إذن يشتغل على المستوى الاقتصادي بتشجيع الثقافة الاستهلاكية لدى الدَّوات المستعمرة حتَّى يقتل فيها روح الإنتاج والمبادرة، " فالأمعاء التي ركب عليها الاستعمار الرُّؤوس الحاكمة تعطل النشاط الطبيعي في الوطن. وحينما نتكلَّم عن هذا الكائن الغريب، فإننا لا نتحدَّث عن وحش من عصور ما قبل التاريخ، بل عن حيوان معاصر لنا: إنَّه كائن أميبي تتصرَّف دوافعه الهضمية في سياسات بدائية "².
فمالك بن نبي إذن يستخدم مصطلح (الدَّوافع الهضمية)و(الأمعاء) في هذا السِّياق ليشير إلى الثقافة الاستهلاكية التي تلقى مع الأسف قبولاً لدى إنسان الأزمة - ابن المستعمرات - الذي يحبُّ السَّهولة وتتقبَّل نفسيته الأمور السَّهلة فيميل إليها.

2.2 موقع المثقَّف من الصِّراع الفكري:

يعطي ابن نبي للمثقَّف أهميَّة كبيرة في نظريته وأفكاره، فالمثقَّف هو من بإمكانه التَّفطُّن إلى ألعيب الاستعمار وخططه واستراتيجياته التي يمارسها على الشُّعوب المستعمرة، ونصوصه التي تكتب وأفكاره التي يقدِّمها في سياق خطاب ما بعد كولونيالي هي بمثابة سلاح فكري يمكنه نشر الوعي ومحاربة الزَّيف ومقاومة التضليل. و" لا يكتب النصِّ الموازي إلَّا في حضور مثقِّفين واعين وعيا جمعيًّا بجغرافيتهم التي صنعت تاريخهم: «نريد نقاداً عندهم الشَّجاعة» فكريًّا وأدبيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا، وعسكريًّا وأخلاقيًّا واقتصاديًّا ليقولوا لنا معنى الذي يحدث. ولماذا حدث، وهل جرى بالمصادفة أم بالتخطيط، وكيف السَّبيل إلى الخروج منه ..."³.

¹ المرجع نفسه، ص 15.

² بن نبي مالك، الصِّراع الفكري، ص 30.

³ كرمة سامي، المرجع السابق، ص 21.

وفي هذا السّياق نظن أنّ ابن نبي سبق إدوارد سعيد للحديث عمّا يسمّى بخيانة المثّقّفين، ذلك أنّ المثّقّف قد يصبح - في مجتمع وواقع الشّعوب المستعمرة التي يعيش معها - معول هدم لا معول بناء، بل قد يصبح أداة طيّعة في يد الفكر الكولونيالي، خاصّة أولئك المثّقّفين الذين تلقوا تعليما خاصّا في المدارس الكولونياليّة، ومالك بن نبي لا يتحدّث عن هؤلاء فحسب، وإنّما يتحدّث في كتابه "الصّراع الفكري في البلاد المستعمرة" عن نوع خاصّ من المثّقّف يسميه "الكاتب التّقديمي" الذي يكتب أدبا تقدّميا ويقصد بهذا الأخير: "الأدب الذي ظهر في بعض الأوساط الفكرية في البلاد الأوروبيّة، ويمثله في فرنسا كتّاب مختلفون في الاتجاه السّياسي مثل (موريك) أو (روبرت برا) من اليمين، و(سارتر) أو(فرنسيس جانسون) من اليسار".¹

فهؤلاء الذين يتّم تقديمهم عادة على أنّهم كتّاب عالميون متنوّرون وأصحاب فكر إنساني، يدافعون عن القضايا العادلة لبني البشر المستضعفين، الذين هم على قدر واسع من الثّقافة، نجدهم يتنكّرون لمبادئهم التي آمنوا بها، أو نجدهم يعيشون فصاما في تطبيقها، بين النّطاق السّياسي والنّطاق الفكري، فهم يقفون في وجه الاستعمار وسياساته الإمبرياليّة مادام الأمر محصورا في الجانب السّياسي، أمّا إذا أخذ الجدل والصّراع منحى فكريّا فإنّنا نجدهم يرتدّون على أعقابهم ويتنكّرون لأبناء المستعمرات ولمبادئهم التي آمنوا بها أولا وقبل كل شيء، وإلى هذا يشير ابن نبي بقوله: " نرى أنّ الكاتب التّقديمي، في الخارج يشارك في المعركة ضدّ الاستعمار بجانب المستعمرين، ولكنّه يشارك فيها مادامت في النّطاق السّياسي، وسرعان ما ينعزل عنها حينما تأخذ طابع الصّراع الفكري"...²

فهذا انشطار في المبادئ وازدواجيّة في المعايير وعدم ثبات و يقين على المبدأ، ونستطيع أن نسّمها أزمة مثّقّف يعيش تناقضا بينما هو كائن وما ينبغي أن يكون. وهكذا نلاحظ أنّ ابن نبي حدّد الموقع الواجب أن يأخذه المثّقّف في مجتمعه، إنّه لمن الواجب عليه أن يكون في قلب الصّراع، وأن يعيش التجربة الاستعماريّة من الدّاخل حتّى يتمكن من فهمها الفهم الأمثل الذي يتيح له الإنصاف .

¹ بن نبي مالك، المصدر السّابق، ص10.

² بن نبي مالك، الصّراع الفكري، ص11-12.

الخاتمة:

- يمكننا أن نوجز أهمّ النتائج التي توصلنا إليها في بحثنا هذا فيما يلي:
1. النظرية ما بعد الكولونيالية حقل بحثيّ مستجدّ، على صعيد الدّراسات النّقديّة، تأتي متواشجة مع -حقول معرفيّة متعدّدة لاسيما حقل الدّراسات الثّقافيّة، تعرف جدلا في الماهيّة والمصطلح والمفهوم، وعموما هي نظريّة تسعى إلى مساءلة الاستعمار وتفكيك مقولاته المركزيّة.
 2. تتجلى بعض إرهاصات هذه النّظرية في فكر ابن نبي من خلال عمليّة تفكيكه الاستعماري بوساطة إبداعه لمعاملين: "المعامل الاستعماري" وهو معامل خارجيّ بالنسبة للذّات المستعمرة، و"معامل القابليّة للاستعمار" وهو معامل داخليّ باطنيّ ناتج عن تعقّن فكري لدى بعض أفراد شعوب المستعمرات.
 3. تصدّى مالك بن نبي في كتابه "الصّراع الفكري" إلى فكرتين جوهريتين حاول من خلالهما مساءلة الخطّاب الكولونيالي هما: حرب الأفكار التي يشهدها الاستعمار بأدوات واستراتيجيّات ووسائل مختلفة، كما أبرز واقع المثقّف في ظلّ الصّراع الفكري، والموقع الواجب أن يأخذه في هذا الصّراع.

قائمة المراجع:

- إدوارد سعيد، (2014)، الثّقافة والإمبرياليّة، تر: كمال أبودييب، ط4، دار الآداب للنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان.
- أشكروفت بيل، جريفيث جاريت، تيفين هيلين، (2010)، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيّسيّة، تر: أحمد الروبي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر.
- بريون فوزيّة، (1431هـ- 2010م)، مالك بن نبي عصره وحياته ونظريّته في الحضارة، ط1، دار الفكر، دمشق.
- ابن نبي مالك، (1438هـ- 2017م)، شروط التّهضة، تر: عمر كامل مسقاوي و عبد الصّبور شاهين، ط15، دار الفكر، دمشق.

- ابن نبي مالك، (2017م)، الصّراع الفكري – مشكلات الحضارة- ، تر: كامل مسقاوي و عبد الصّبور شاهين، طبعة 2017، منشورات ابن مرابط.
- بوحاريش نادية، النّظرية ما بعد الكولونياليّة والتلقّي العربي، رسالة ماجستير، كليّة الآداب واللّغات، جامعة محمّد الصديق بن يحي، جيجل، 2015-2016.
- روبنسون دوجلاس، (2005)، التّرجمة والإمبراطوريّة نظريّات التّرجمة ما بعد الكولونياليّة، تر: ناثرديب، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- سلامّ يونس، (2020)، هل يمكن للتّابع أن يُسمع؟: النّظرية السّياسيّة، التّرجمة، التّمثيل وغياتري شكرافورتي سبيفاك، مجلّة اللّغة العربيّة، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، المجلّد 22، العدد 50، 2020.
- شعبان عبد العزيز، (2020)، تمثّلات الاتجاه ما بعد الاستعماري في كتابات مالك ابن نبي وفرانز فانون، مجلّة إشكالات في اللّغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست- الجزائر، مجلّد 9، العدد 5، 2020.
- هومي. ك. بابا، (2004)، موقع الثّقافة، تر: ناثرديب، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.